٣٨ بَاب التَّوْبة وَالرحْمَة

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قال : قالتْ قُرَيْشٌ للنبى ﷺ : ادْعُ لنَا ربَّكَ أنْ يجعلَ لنَا الصَّفَا ذَهَباً ونُؤمن بك ، قال : وتفعلُونَ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قال : فَدَعَا فَأتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : «إنَّ ربَّكَ - عَزَّ وجَلَّ - يقرأ عليْكَ السَّلاَم . ويَقُولُ : إنْ شِئْتَ أَصْبحَ لَهُم الصَّفَا ذَهَباً ، فمَنْ كفَر بَعْدَ ذلكَ منهم عَذَّبْتُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُه أَحَداً منَ العَالمينَ ، وإنْ شِئْتَ فتحْتُ لهم بَابَ التَّوْبة والرَّحْمة. قَالَ : بَلْ بَاب التَّوبة والرَّحْمة»(١).

يقول الحق سبحانه عن مُشْركى قريش:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا(٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

والمتأمِّل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البعد

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٤٢) ، والحاكم فى مستدركه (١/ ٥٣ ـ ٢/ ٣١٤ ـ ٤/ ٢٤٠) وقال : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما وقال :«رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح».

(٢) كِسَف السحاب : قِطعه. فكل شىء كسفته فقد قطعته. (لسان العرب ـ مادة : كسف).

عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله.

وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغَ فيه قومه ولهُمْ به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صِدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق.

فظهر من هذا القول سوء النية المبيَّتة منهم ، فالرسول لن يأتى بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلَّف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤْتى به من آيات ، ولكن الحق سبحانه هو الذى يُرسِل الآيات المناسبة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (المائدة)

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يرسل هذه الآيات رحمةً بَمَنْ سألوا الرسول ﷺ عنها ، فقد سأل قوم [1] عن ناقة وعقروها فأبادهم الله ، وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم ، وتوعَّدهم الحق بعدها إنْ لم يؤمنوا ، وكانت سنة الله مع خَلْقه إن اقترحوا هم آية ولم يُصدِّقوها ، فإن الحق يُهلِكهم أو يُعذِّبهم.

(١) يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأعراف) ثم قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿٧٧﴾﴾ (الأعراف)

وحين يطلب أتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التفلّت والتحلّل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)

فليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شىء ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ قادر أن يُنزِل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجزه شىء ، ولايتعاظمه شىء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات.

يقول تعالى : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)

فقوم ثمود طلبوا معجزة بعينها [1] ، فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فَمَا كان منهم إلا أَنِ استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التى طلبوها ، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها. أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها.

هذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً منَّا عن الإتيان بها.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٨) :«كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنُوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزوجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها».

فالمسألة ليست مسألة الإتيان بالآيات والمعجزات ، فالله سبحانه قادر قدرةً مطلقة لا يُعجزه شيء ، فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ (الرعد)

فالكافرون تساءلوا ـ كذباً ـ عن مجيء آية ، وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع يناقضون به أنفسهم ، فقد قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف)

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين«مكة أو الطائف».

وهم من قالوا أيضاً : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ (الحجر)

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغُوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب والبيان ، والفصاحة ، ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم في البلاغة و القصائد ، فهم أمة تطرب فيها الأذن لما ينطقه اللسان.

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتي نزلتْ على الرسل السابقين عليهم

السلام ، ونسوا أن الآية الكونية عمرها مقصور على وقت حدوثها ، ومَنْ رآها هو مَنْ يُصَدِّقها ، أو يُصدِّقها مَنْ يخبره بها مصدر موثوق به.

والحق سبحانه يُبيّن لنا أنهم غارقون فى العناد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حجج يتلكئون بها حتى لايؤمنوا ، فتعنتوا ، ولم يكتفوا بالقرآن معجزة وآيات تدلهم إلى سواء السبيل ، بل اقترحوا هم الآية حَسْب أهوائهم ، ولذلك نجدهم قد ضلُّوا.

ويقول الحق سبحانه عن اقتراح من اقتراحاتهم: ﴿**قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴿٢١﴾**﴾ (الفرقان)

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كل البُعْد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد.

لذلك يقول الحق سبحانه رَدّاً على لَجَج هؤلاء وتعنُّتهم :

﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴿١١١﴾**﴾ (الأنعام)

وقد قالوا أيضاً : ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ (١) أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾**﴾ (الإسراء)

(١) الزخرف : الذهب ، ثم استعمل فى الزينة وفى أثاث البيت الجميل. وقوله تعالى : ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴿٩٣﴾**﴾ (الإسراء) أى : من ذهب أو كله زينة وأثاث جميل . (القاموس التويم ١/ ٢٨٥).

ويظهر أنهم تسرَّعوا فى هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

وكأنهم يُبيِّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون فى الأولى ، وكاذبون فى الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذى أرادوا ما آمنوا.

وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[1] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ (الأنعام)

فقد طالب المكذِّبون الرسول ﷺ أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى ، فبعد أنْ وضَّح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يُفجّر لهم الرسول ﷺ يَنْبُوعاً فى أرض مكة لاينقطع ماؤه ، أو يكون رسول الله ﷺ بمكة بستان من نخيل وعنب ، تتخلله الأنهار ، أو أن يدعوَ لرسول الله ﷺ أن تُنزل عليهم السماء قِطعاً كعذاب شديد.

أو أنْ يتجسَّدَ لهم الله والملائكة ليَروْهم رَأىَ العين ، أو أن يكون لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أنْ يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه يُنزِّه ذاته أن يتحكم فيه أحد ، أو يشاركه فى قدرته ، فيعلن لهم على لسان رسوله ﷺ قوله سبحانه وتعالى :

(١) القرطاس: الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه .(القاموس القويم ٢/ ١١٣)

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

لأن الذي يبعث الآيات هو رَبُّ العالمين ، ولا أحدَ يجرؤ أن يفرض على الله آياته ، ورسول الله ﷺ هو مستقبل لآيات الله لا مقترحٌ للآيات ، ذلك أنه ﷺ يعلم أن مَنْ يقترح على الله آية ثم تأتى ، فيكذب بها يصيبه ويناله الهلاك ، هذه سنة الله.

وانظر إلى رَدِّ القرآن على كُلِّ هذا التعنُّت السابق : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي...﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

ولأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَداً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهم.

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت)

وقد قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة)

كأن عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ؛ لأنكم ما دُمْتُمْ قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صِدْق رسوله ،

وحَسْبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى ، وعليكم أنْ تُلزِموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾ (المائدة)

وكأنهم أرادوا أنْ يتشبَّهوا بسيدنا إبراهيم الخليل عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه ، لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عَيْن اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة.

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين أنْ يؤمن الإنسان بذاته ، وأنْ يشهد بالإيمان عند غيره ، فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق.

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ، وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة ـ قال سبحانه:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ (المائدة)

والمقارنة بين قَوْل الحواريين وقَوْل عيسى ـ عليه السلام ـ تدلُّنا على الفارق بين إيمان المبلّغ عن الله ، وإيمان الذين تلقَّوْا البلاغ عن عيسى ، إيمان عيسى هو الإيمان القوىّ الناضج ، أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص.

لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقّى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ عن الله ، وتَمَّ

ذلك بواسطة رسول ؛ ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه فى سُلَّم الإيمان درجة أعلى ، إنه يتلقى عن الله ؛ ولهذا صَحَّح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه.

لقد قال عيسى داعياً الله: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة)

وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ، ملتزماً بالتكليف القادم منه ، ثم جاء بنداء الربوبية ، فيا مَنْ أنزلتَ علينا التكليف ، ويا مَنْ تتولّى تربيتنا نحن ندعوك أن تُنزِل علينا مائدة من السماء.

وأخذ نداؤه زاوية القيم ، ثم زاوية المادية وهى الرزق ، لكن الحواريين قدَّموا بشريتهم ، فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (المائدة)

أما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد أخَّر الطعام عن القيم بصفائية اختياره رسولاً ، فقال : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة)

ويجيب الحق سبحانه على دعاء عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة)

وقد اختلف العلماء [1] : أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة ، أم لم

(١) اختلف العلماء على قولين: =

ينزلها؟ إن هناك مَنْ تمسَّكوا بقول الحق سبحانه : ﴿ **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ..﴿١١٥﴾** ﴾ (المائدة) . وهناك مَنْ قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها.

وكان محمد ﷺ رحيماً بآله وعشيرته ؛ لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه.

والرسول ﷺ كان يُحزِنه أنْ يسارعَ البعض فى الكفر ، فقد كان ﷺ يحرص على أنّ يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحزن إلى قلبه ، فهو ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾**﴾ (الأنبياء)

ودليل ذلك أن جاءه التخيير ، فقد نادى جبريل رسول الله ﷺ ، وقال : «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك

= **الأول:** أنها لم تنزل . قال مجاهد: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء وكذا قال الحسن البصرى. وقال مجاهد أيضاً : مائدة عليها طعام أبوْها. قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١١٩) : «هذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم».

الثانى: أنها نزلت. قال ابن كثير فى تفسيره :«الذى عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذى اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها ووعد الله ووعيده حق وصدق ، وهذا القول هو الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم».

ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال : فنادانى ملك الجبال وسَلَّم علىّ ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمرنى بأمرك ، فما شئتَ؟ إنْ شئتَ أُطبِق عليهم الأخشبين (١)؟ فقال النبى ﷺ : «بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً» (٢).

فالرسول ﷺ لا يُبقى على هؤلاء فقط ، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة ، وقد كان ، وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء.

فكان رسول الله ـ كما أخبر الله فى آيات القرآن ـ يحزن عندما لايذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق سبحانه: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾** ﴾ (الكهف)

ولذلك حين عَلِم الحق ـ عِلْم وقوع ـ أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أنْ يشملها الله بمغفرته ورحمته ، وألا يسوؤه فيها ، أخبره المولى ـ عزوجل ـ بأنه سوف يُرضيه فى أمته.

وقد ورد فى الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قَوْلَ الله عزوجل فى إبراهيم ﷺ ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾** ﴾ (إبراهيم) وقول عيسى عليه السلام ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾** ﴾ (المائدة).

---

(١) الأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والجبل الذى يقابله ، قال ابن حجر فى الفتح (٦/ ٣١٦): «سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما».

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

فرفع ﷺ يديه فقال: أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عزوجل: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ، فقل: إنَّا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك» (١).

فمن رأفته ﷺ صَعُب على نفسه أنْ ينال قومه مشقة ، فالرحمة والرأفة مصدرهما ما وهبه الله إياه من فَهْمٍ لقيمة نعمة الإيمان.

ولقد امتنّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبه ونسبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ محباً لقومه حريصاً على هدايتهم.

قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ (التوبة)

أى : تعز عليه مشقتكم ويؤلمه عنتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص الضَّنُّ بالشىء ، فكأنه ﷺ يضنُّ بقومه.

وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا المعنى في الحديث الشريف:

«إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم(٢) وأنتم تقحمون فيه»(٣).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢) كتاب الإيمان من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى هذا الحديث فى (المجلد ١/ ص ٥١٥ ـ ٥٣٢) .

(٢) حُجْزة الإنسان: معقد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدَّه على وسطه. فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشىء والتعلق به. (لسان العرب ـ مادة : حجز).

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

لذلك حَزِن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببت له ما تراه من الخير ، كمَنْ ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها مَنْ يحب من أهله ومعارفه.

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحب أن يشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُسلِّى رسوله ، ويُخفِّف عنه ما صُدِم في قومه ، فيقول له:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ (النحل)

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (الأنعام)

فالمسألة ليست مسألتك أنت ، إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ، فالحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ هنا للتسلية ، ويعطيه الأُسْوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذِّبون به ، فيقول:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه يُوضح لرسوله ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ، فلا تبتئس ولا تحزن ، فهذا التكذيب ظاهرة عانى منها كل الرُّسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بُدَّ أنْ يُكذَّبوا.

والرسول ﷺ لم يكُنْ رحمة لمن أُرسِل إليهم فقط ، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم ، والعالم هو كل ما سوى الله ، فالملائكة عالم ، والجن عالَم، والحيوان عالَم ، والنبات عالَم ، فالرسول ﷺ رحمة لكل هذه العوالم.

وانظر إلى رحمة رسول الله ﷺ بالحيوان في قوله الشريف:«دخلت امرأة النار في هِرَّة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا سقتها ، ولا تركتها ، تأكل من خشاش (١) الأرض»(٢).

كما يخبرنا حديث آخر أن الله غفر لرجل سَقى كلباً ، كان يلهث من شدة العطش ، فنزل البئر وملأ خُفَّه ماء وسقى الكلب فغفر الله له. فحتى الكلب نالته الرحمة (٣).

فكُلُّ ما جاء به النبى ﷺ داخل فى عناصر الرحمة ، فالله تعالى أرسل رسوله رحمةً لعالمين ، وحتى ينال الناس هذه الرحمة لابُدَّ أن يؤمنوا بالله ويتبعوا منهجه ، فإنْ أعرضوا وتولَّوْا فلا عُذْرَ لهم ولا حجة.

---

(١) من خشاش الأرض : يعنى من هوامِّ الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها . (لسان العرب ـ مادة : خشش).

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣١٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٢) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٣)عن أبى هريرة رضى الله عه أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) كتاب السلام.